مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ ﴾ أي: تحسبهم إذا أَنْظَرهم وأجَّلهم أنه غافلٌ عنهم، مُهْمِلٌ لهم، لا يُعاقبهم على صنيعهم. بل هو يحصي ذلك عليهم، ويَعُدُّ عليهم عَدًّا ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي: من شدَّة الأهوال يوم القيامة.

ثم ذكر الله تعالى كيفيةَ قيامهم من قبورهم، وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي: مُسرعين. كما قال تعالى: ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ

(١) إبراهيم: ٤٢، ٤٣.
(٢) القمر: ٨.

ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [2]

وقوله: ﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ قال ابنُ عباس ومجاهدُ وغيرُ واحد: رافعي رءوسهم ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي: أبصارُهم ظاهرةٌ شاخصةٌ، يُديمونَ النظر لا يطرفون لحظةً؛ لكثرةِ ما هُم فيه من الهَوْلِ والفكرة، لما يَحلُّ بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك. ولهذا قال: ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي: وقلوبُهم خاويةٌ خاليةٌ، ليس فيها شيء؛ لكثرة الوَجَلِ والخوف. ولهذا قال قتادةُ وجماعةٌ: إن أمْكِنَة أفئدتهم خاليةٌ؛ لأن القلوبَ لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضُهم: هي لا تعي شيئاً؛ لشدة ما أخبَرَ به تعالى عنهم.

أخي المسلم: ذاك ما ذكره الإمامُ ابنُ كثيرٍ في تفسير هذه الآية ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

ثم قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ

(١) طه: ١٠٨ - ١١١.
(٢) المعارج: ٤٣.

ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١)

هذا حالُ الذين ظلموا أنفسَهم عند مُعاينة العذاب، وهذا قولُهم: ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ كما أخبر عنهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ (٢)

هكذا عند مجيء الموت يعرف الإنسانُ ما هو قادمٌ عليه - ممَّا كسبت يداه - فيتمنى مَن فرَّط وضيَّع وظَلَمَ أو أفسدَ أن يرجعَ ليُصلِحَ ويعمل غير الذي كان يعمل، فلا يُردُّ لدُنياه، ولا يجد له مُنقِذاً من عذابٍ في أُخراه، فيخسر دُنياه وأُخراه، وذلك هو الخُسران المبين.

إن الظُّلْمَ ظُلماتٌ يوم القيامة. فمَن لم يتق الظلمَ في دُنياه حمله وِزْراً يوم القيامة وإن كان يسيراً، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم، أن رسولَ الله ﷺ قال: « مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ » (٣)

فلنحذر من الظلم في أيِّ صورةٍ من صُوَرِه، ولنتحلَّل منه قبل أن يأتيَ الأجلُ،

---

(١) إبراهيم: ٤٤، ٤٥.
(٢) المؤمنون: ٩٩، ١٠٠.
(٣) سبق تخريجه.

وما أسرع ما يجيء. وإذا جاء لا يُؤَخَّر.

وروى البخاريُّ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ - مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ - فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ؛ قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ. إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ » (١)

فليراقب كُلُّ إنسانٍ نفسه، وليخش أن يظلم في قولٍ أو فعلٍ، وليوقظ قلبَه بذِكْرِ ربِّه، وليحذر أن يأتيَ يومَ القيامة مُفْلساً قد ضيَّع بظُلمه ما عمل من حسناتٍ، وحَمل من خطايا مَن أساء إليهم. وقد نبَّه الرسولُ ﷺ إلى ذلك بقوله، فيما رواه مسلمٌ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ (٢) هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » (٣)

أخي المسلم: إن الإعلامَ بذلك له دَلالته في اتِّقاء الظلم ومباينة أهله ﴿ **وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ** ﴾ (٤) ومَن تدبَّرَ العواقب أيقنَ أن الظالم لن يَفْلتَ من عقابٍ، وقد يُمْلَى للظالم، فإذا أخذه الله لم يفلته. فلا يُغَرَّنَّ أحدٌ بما يكون للظالمِ من

---

(١) البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب مَن كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، رقم ٢٢٦٩.

(٢) القذف: الاتهام بالزنا دون شهود.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) هود: من الآية ١١٣.

إملاءٍ أو استدراج؛ فإن في ذلك دلالة أخذٍ أليمٍ شديدٍ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٢)

ومَن أحبَّ أن يبرأ من الظلم فليُخلص القصدَ لربِّه، وليتمسك بما أمرَ الرسولُ ﷺ به في قوله: « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنْ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ » (٣)

أسألُ اللهَ أن يُعينَنَا على أنفسنَا، وأن يجعلنا حيثُ يحبُّ لنا ويَرْضَى، قوَّامين بالقسطِ، شهداء لله ولَوْ على أنفُسِنَا.

(١) الحج: ٤٨.

(٢) هود: ١٠٢.

(٣) البخاري: كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه، رقم ٦٤٣٨.